حوار مع الدكتور خير الدين حسيب عن

مصير الأمة في ميزان عراق 2004

النظرة القومية الجامدة للمتغيرات الجارية على الصعد العربية والإقليمية والدولية

كاظم حبيب

نادرة هي المقالات التي يكتبها الزميل الدكتور خير الدين حسيب، ولهذا قرأت بإمعان مقالته الأخيرة التي نشرت في مجلة (المستقبل العربي عدد شهر كانون الثاني 2004) تحت عنوان (مصير الأمة العربية في ميزان عراق 2004- المتغيرات السياسية في الملف العراقي). حالما انتهيت من القراءة المتأنية للمقال حاولت تلخيص أفكاره الأساسية لتشخيص دقيق لما يسعى إليه أولاً، والحوار معه بشأنها ثانياً. وكانت الخلاصة :

+إن الولايات المتحدة التي تحكم من قبل المحافظين الجدد تسعى إلى فرض هيمنتها على العالم والسيطرة على نفط العراق والخليج والشرق الأوسط وأفريقيا، وكذلك نفط القوقاز وقزوين.

+وإن مصير الانتخابات الأمريكية وتجديد رئاسة جورج بوش مرتبطة بمدى النجاحات أو الانتكاسات التي ستتعرض لها الولايات المتحدة في العراق والاقتصاد الأمريكي وفي أفغانستان.

+ولهذا يتطلب العمل من أجل دعم المقاومة العراقية، إذ أنها قادرة لوحدها على لجم المعتدين وطردهم من الأرض العراقية وتحرير العراق، رغم البؤس والاهتراء الذي يعيش فيه العالم العربي.

+وإن اعتقال صدام حسين أصبح معضلة للولايات المتحدة ومحنة كبيرة بدلاً من أن يكون ورقة رابحة لتجديد رئاسة جورج و. بوش.

+وإن الولايات المتحدة تسعى اليوم إلى تشكيل حكومة عميلة لها في العراق بدلاً عن ما يسمى اليوم بمجلس الحكم الانتقالي لتقبل بإقامة قواعد عسكرية أمريكية لها في العراق.

وفي هذا المقال تجنب الدكتور خير الدين حسيب الإشارة إلى عدد من المسائل الجوهرية التي لا مناص من وضع اليد عليها لإعطاء أهمية في الحوار الذي أسعى إلى خوضه معه ومع من يتبنى وجهة نظره من القوميين العرب.

1. لم يتطرق الدكتور حسيب إلى طبيعة النظام العراقي المخلوع الذي ساد فترة 35 عاماً في العراق وعرض البلاد إلى استبداد شرس ومرير، كان هو أحد ضحاياه في بداية مجيء [illegible] صدام حسين إلى السلطة في تموز من عام 1968، ثم تحول بفترة قصيرة إلى أحد المدافعين عن هذا النظام في فترة أخرى.

2. كما لم يتطرق الكاتب إلى مسؤولية النظام العراقي وصدام حسين شخصياً عما جرى في العراق وللعراق خلال العقود المنصرمة وخاصة بعد شنه الحرب ضد إيران وغزوه الكويت وتوريط العراق بحرب الخليج الثانية والحصار الاقتصادي وأخيراً مساهمته في التمهيد الفعلي لاحتلال العراق بالحرب الأخيرة وفقدانه للسيادة والاستقلال الوطني تماماً، علماً بأن العراق كان قد فقد استقلاله وسيادته الوطنية منذ سنوات عديدة حتى قبل سقوط بغداد الدراماتيكي في التاسع من نيسان من عام 2003 عندما هرب القائد التاريخي والقيادة الرائدة والقادة والقاعدة على حد سواء من المعركة. ولم يتطرق أيضاً إلى مسؤولية النظام في تعميق الصراع في المنطقة العربية بعد احتلاله الكويت وتأثيره السلبي حتى على فكرة (الوحدة العربية) وزيادة تمزيق الموقف العربي إزاء الأحداث.

3. ولم يتطرق الأخ الفاضل إلى المجازر الدموية التي نفذها النظام العراقي على امتداد حكمه ضد الشعب الكردي والأقليات القومية وضد عرب الجنوب والوسط وضد الأكراد الفيلية، وكذلك التهجير القسري الذي نفذه ضد مئات الآلاف من العراقيات والعراقيين ودفعهم إلى إيران كأنهم ليسوا عراقيين أو بشراً ينبغي أن يحترم الإنسان كرامتهم، وأنزل المزيد من الاضطهاد في من تجرأ واحتج على الاضطهاد وظلم وقتل هؤلاء الناس.

4. ولم يتطرق الزميل إلى ما تعرضت له العشائر والقوى العراقية في منطقة شمال غربي بغداد خلال السنوات الأخيرة من تجاوزات كبيرة أدت إلى هروب عدد كبير من عناصر الجيش والاستخبارات العسكرية والسلك الدبلوماسي وأجهزة الدولة الأخرى إلى الخارج خشية غضب الدكتاتور عليهم وخوفاً من مزاجه السادي ونرجسيته التي بلغت حد الخطيئة.

5. كما لم يتطرق ولو بكلمة واحدة إلى دور القوى القومية العربية، وخاصة التيار الذي يقوده في الحركة القومية، في دعم النظام العراقي وتشجيعه على السير في الطريق الخطر الذي سار عليه منذ الحرب العراقية - الإيرانية وتشجيعه على إنتاج أسلحة الدمار الشامل واحتلال الكويت، ودور بعض القوميين العرب في بغداد ومن أتباع التيار الفكري والسياسي في وضع البرامج الاقتصادية لتحقيق وحدة العراق والكويت حتى قبل البدء باحتلال الكويت وفي أثناء التحضير لذلك الاحتلال.

إن ما أشير إليه في أعلاه يؤكد أن مقال الدكتور خير الدين حسيب، كما أرى، يتسم بما يلي:

+فقدان الموضوعية والتوازن في رؤية الواقع العراقي على امتداد العقود المنصرمة والعواقب المأساوية والكارثية التي ترتبت عن وعلى سياسات النظام الاستبدادي المطلق.

+استمرار عجز الفكر القومي اليميني الذي يمثله السيد حسيب عن الرؤية الواقعية للأحداث لواقع الأمة العربية وطبيعة الصراعات الدائرة في المنطقة وعن ميزان القوى الراهن في العالم والمنطقة.

+وأن الدكتور حسيب لم يعد قادراً على رؤية الأمور بعينين مفتوحتين وبالاتجاهين، بل بعين واحدة وباتجاه واحد لا غير!

ويبدو لي أن هذه هي إحدى إشكاليات التيار القومي العربي عموماً والتيار الذي يمثله الدكتور خير الدين حسيب بشكل خاص، وهو الذي قاد الدول العربية إلى الوضع الذي هي فيه، كما يمكن أن يقودنا إلى عواقب وخيمة أخرى إن استمر على هذا النهج غير العقلاني المفصول عن الواقع العربي والعالمي.

لنبدأ الآن بمناقشة مقالة السيد الدكتور حسيب.

..قلة قليلة تلك التي لا تعرف طبيعة واتجاهات السياسات الأمريكية إزاء العالم العربي وإزاء القضية الفلسطينية وإزاء العراق أيضاً. وقلة أيضاً تلك التي لا تعرف شيئاً عن استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة والعالم، وبالتالي فإن الغالبية العظمى من شعوب المنطقة تدرك رغبة الولايات المتحدة في الهيمنة على العالم ودفع عملية العولمة الموضوعية لتتماشى مع سياساتها العولمية وتحقيق مصالحها. وقد صدر بشأن ذلك الكثير من الكتب والدراسات والمقالات على الصعد العربية والإقليمية والدولية. وشاركت من جانبي في إنجاز كتاب هو الآن تحت الطبع تحت عنوان "العولمة من منظور مختلف"، كما كتبت سلسلة من الدراسات والمقالات عن الوضع في العراق قبل الحرب، حيث رفضت الحرب كوسيلة لحل المعضلات وبلورة الأهداف الكامنة وراء رغبة الولايات المتحدة بشن الحرب في العراق وتقديم ذلك نموذجاً لحروب وقائية قادمة، فضلاً عن استراتيجيتها في المنطقة والعالم. كل هذا وغيره معروف جيداً للغالبية العظمى، ويعرف القسم الأعظم من شعوب العالم أن النفط الخام والغاز الطبيعي والموارد الأخرى في المنطقة وأسواق هذه الدول والاستثمارات الممكنة فيها هي التي تدفع بالولايات المتحدة للهيمنة عليها، إضافة إلى الأهداف السياسية والاجتماعية والعسكرية الأخرى.

ولكن أليس من حقنا أن نطالب الدكتور حسيب بالإجابة عن الأسئلة التالية وبكل وضوح وصراحة: من هو الذي ساعد، بسياساته الاستبدادية وغير العقلانية والعدوانية إزاء المجتمع والدول المجاورة، على تأمين الغطاء الذي كانت تبحث عنه الولايات المتحدة لشن حرب الخليج الثانية والثالثة؟ ومن هو الذي قدم المنطقة على طبق من ذهب هدية للولايات المتحدة، بحيث أصبحت المهيمن الفعلي سياسياً وعسكرياً واقتصادياً على منطقة الخليج ومنطقة الشرق الأوسط بشكل كبير جداً منذ أن بدأ حربه الجنونية ضد إيران وغزوه الكويت وحرب الخليج الثانية؟ ومن هو الذي ساعد صدام حسين على الاستمرار بسياساته هذه عبر بيانات المؤتمر القومي العديدة وقدم له الدعم في مسيرته نحو إنتاج أسلحة الدمار الشامل، ومن أيده في حربه ضد إيران واحتلال الكويت وبارك هذا الغزو باعتباره خطوة بالاتجاه الصحيح نحو الوحدة العربية؟ ومن سافر إلى زيارة صدام حسين والتقاه به رغم احتجاج القوى السياسية الديمقراطية العراقية؟ ومن الذي سكت عن كل الجرائم التي ارتكبها النظام العراقي طيلة عقود ثلاثة دون أن ينبس ببنت شفة خشية أن تمتد يد الثورة الطويلة إليه، وشنع واستفز من حاول من على المنابر العربية فضح النظام الدموي وسياساته في العراق خشية قطع الدعم أو الحوار مع النظام؟ ومن أصدر البيانات إلى الأمة باسم (المؤتمر القومي العربي) تأييداً لصدام حسين ونظامه؟ لا يجد الإنسان في مقال الدكتور خير الدين حسيب الجواب الشافي عن هذه الأسئلة ولا حتى الإشارة إليها فالزميل الفاضل لم يتحدث عن الدكتاتور صدام حسين، بل عن صدام حسين، وكأنه كان يريد أن يقول (الرئيس صدام حسين)، كما فعل زميل له في المؤتمر القومي في بغداد في مقابلة له مع إحدى الفضائيات العربية بعد سقوط نظام الدكتاتور صدام حسين، وهاجم من يحاول التجاوز على (الرئيس صدام حسين) في الصحف العراقية. أدرك الخشية على النفس من مثل هذه التصريحات، ولا سيما وأن صدام حسين لم يكن قد اعتقل بعد. ولكن ما السبب في استخدام هذه اللغة الدبلوماسية في الوقت الحاضر مع شخصية عاثت في البلاد فساداً وقتلاً وتدميراً لأجيال عديدة قادمة، إن لم يكن توافق الأفكار والسياسات والمصالح؟ ويبدو لي أن كل ما قام به (المؤتمر القومي) برئاسة الدكتور خير الدين حسيب قبل ذلك وفي التسعينات من القرن الماضي، لم يكن كافياً لدعم صدام حسين، بل عقدت مجموعة كبيرة من القوميين العرب من تيار الدكتور خير الدين حسيب الدورة الحادية عشر لمؤتمرها القومي في بغداد في الفترة الواقعة بين 13-19 أيار 2001. وكان الدكتور حسيب عضواً في الأمانة العامة لهذه الدورة وأميناً عاماً سابقاً للمؤتمر القومي وأدار بعض اجتماعات هذه الدورة ومنها تلك الجلسة المهمة التي نقلت عبر الفضائية العراقية وغيرها من الفضائيات، حيث استضاف المؤتمرون طارق عزيز - المساعد الأيمن للدكتاتور صدام حسين والسوق الدولي والإقليمي والعربي لنظامه - للحديث عن العراق ودوره السياسي ومواقفه وتبرير سياساته الدموية التي عرضت العراق فيما بعد إلى الواقع الذي يعيش فيه

الحادية عشرة للمؤتمر القومي سجلت في بيانها إلى الأمة النص التالي، إلى جانب نصوص كثيرة أخرى.

وجد المؤتمر قناعته بأن استهداف العراق بالحصار والعدوان هو استهداف لموقفه المبدئي من الصراع العربي الصهيوني والرافض لكل التسويات القائمة ولتوجهه الوحدوي، ولإصراره على بناء قوة ذاتية مستندة إلى تنمية مستقلة، وإلى عمق علمي وتقني". ومن نافل القول أن أشير هنا إلى أن عدداً غير قليل ممن حضر هذا المؤتمر كان على قناعة تامة بزيف هذا النص وابتعاده الفعلي عن حقيقة وطبيعة وسياسة صدام حسين وسلوكه المراوغ ومحاولته الاستفادة من القضية الفلسطينية لتعبئة الرأي العام العربي لا حول القضية الفلسطينية العادلة، بل حول شخصه وكأنه البطل العربي المغوار على شاكلة سرجون الأكدي الذي جلب ما يقرب من أربعين ألف يهودي أسيراً إلى بابل، وكأن في العمل الأخير مفخرة لذلك القائد المستبد أيضاً وليس ظلماً وقهراً لحق باليهود حينذاك، وكأنه كان يريد أن يوهم العرب بأنه القادر على جلب أضعاف هذا العدد أسرى إلى العراق وتحرير فلسطين!

أعرف تماماً أن الدكتور حسيب - وهو عضو في المنظمة العربية لحقوق الإنسان وكان أحد مؤسسيها في بداية الثمانينيات من القرن الماضي - مطلع على المجازر التي ارتكبها الدكتاتور وصحبه في العراق طيلة العقود المنصرمة، وأعرف تماماً أنه يعرف مدى الإهانات وصنوف التعذيب النفسي والجسدي التي كانت توجه للسجناء والمعتقلين في دهاليز النظام، ومنها قصر النهاية حينذاك، حيث كان الدكتور نزيلاً فيه وضيفاً عانى من التعذيب ما عاناه على أيدي أجهزة الأمن والعلاقات العامة في القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي التي كان صدام حسين مسؤولاً عنها مباشرة، ولهذا فمن غير المعقول أن يكون أمراً طبيعياً واعتيادياً لرجل مثل الدكتور حسيب أن يعمل في المنظمة العربية لحقوق الإنسان، ولكنه في الوقت نفسه يمجد الدكتاتور ونظامه وبكثير من المدح الوارد في البيان المذكور من خلال وضع اسمه وتوقيعه تحت ذلك البيان وغيره من البيانات الموجهة إلى الأمة. لقد نشرت مئات الوثائق عن جرائم النظام ضد الشعب الكردي واستخدام الأسلحة الكيماوية والتهجير القسري لمئات الآلاف من العرب والأكراد الفيلية، وساهمت (المنظمة العربية لحقوق الإنسان) في نشر البعض من ذلك، دون أن يعبر (المؤتمر القومي) في كل مؤتمراته التي امتدت بين عام 1990 و 2003، ولو بكلمة واحدة عن هذه الحقيقة والاحتجاج ضد المجازر التي ارتكبت بدم بارد ضد الشعب الكردي الذي يشارك العرب وغيرهم الوطن والمصير، إن كان المؤتمر القومي يريد حقاً الحفاظ على وحدة هذا الوطن العراقي ووحدة المصير!

ليس غريباً أن تقوم الولايات المتحدة وغيرها بنشاط واسع وحروب من أجل تحقيق مصالحها، وهو ليس بالأمر الجديد على الإمبراطوريات القديمة والجديدة، إذ كانت كلها تركض وراء الحصول على المستعمرات ومزيد من الأراضي التي تخضعها لسيادتها، ولكن الغريب هو أن لا تقوم النظم العربية والقوى السياسية في الدول العربية بما يساعد على مواجهة ذلك قبل وقوعه من خلال إزالة الأسباب الحقيقية التي يمكن أن تؤدي إلى تلك العاقبة. فلو شاركت كل القوميين العرب بمقاومة النظام العراقي لما وصل الحال بالعراق إلى الوضع الذي هو فيه الآن، إلا أن التيار القومي المقصود قام بعكس ذلك تماماً، إذ قدم الدعم له وبذلك دفعه - أدرك ذلك أم لم يدركه - إلى ارتكاب المزيد من الحماقات والجرائم وقاد البلاد إلى المصير الذي نحن فيه اليوم، احتلال العراق وفقدان الاستقلال والسيادة الوطنية، وليس فينا من يعرف تماماً متى سيكون في مقدور الشعب العراقي التخلص من هذا الاحتلال، ولكني على ثقة تامة بأن الشعب العراقي قادر على التخلص من الاحتلال بعد سقوط النظام، تماماً كما تخلص قبل ذاك من الاحتلال والاستعمار البريطاني، وأملي أن يكون قريباً، وعلينا أن نعمل جميعاً من أجل ذلك ولكن بالأسلوب القادر على إنجاز هذه المهمة، وليس بالطريقة التي يسعى إليها الإرهابيون والمخربون في العراق حالياً.

لم يخف على المتتبعين لمقالاتي ومواقفي أني رفضت الحرب بصراحة وحزم كبيرين، واعتبرت إشعالها مخالفة صريحة للقانون الدولي وتجاوزاً على ميثاق الأمم المتحدة ودور وقرارات مجلس الأمن الدولي ولائحة حقوق الإنسان وعودة خطرة إلى قانون الغاب والتوحش الرأسمالي الليبرالي الجديد، وكتبت عشرات المقالات وألقيت المحاضرات وشاركت في ندوات تلفزيونية لفضح الأهداف والغايات السياسية والاقتصادية والعسكرية العولمية وراء الحرب التي كانت حينذاك محتملة جداً. ولكني في الوقت نفسه قمت بفضح النظام الدكتاتوري ودعوت إلى تخلي الدكتاتور صدام حسين عن الحكم وساندت بالتوقيع على البيان الذي أيد اقتراح الشيخ زايد آل نهيان بتخلي صدام عن الحكم من أجل تجنيب العراق المأساة الراهنة. وكان صدام يدفع باتجاه معركة (الحواسم) القاتلة. وقمتم يا زميلي الفاضل بالجزء الأول فقط من جانب، وشجعتم من الجانب الثاني النظام العراقي على السير في غيه المشؤوم للوصول إلى الحالة التي نحن فيها الآن. لقد سيطرت عليكم النزعة القومية النرجسية والولاء العشائري القائل (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)، وكنتم ضمن من تسبب بمأساة وكارثة جديدة في عالمنا العربي، واليوم ترمون باللوم على الشعب العراقي وقواه السياسية الوطنية التي ناضلت طوال عشرات السنين ضد الدكتاتورية وقدمت التضحيات الغالية ووقف بعضها ضد الحرب أيضاً، في حين كانت مساومة وتشجيع قيادة تياركم للنظام العراقي واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار، والدليل على ذلك يجده الإنسان في (بيانات الأمة) منذ عام 1990 إلى الوقت الحاضر وفي الكثير من مقالات مجلة (المستقبل العربي) التي ترأسون تحريرها ويشرف مركز دراسات الوحدة العربية على إصدارها، وأخيراً يجد المتتبع الدليل في مقالكم الذي أناقشه الآن وبما يقطع الشك باليقين.

كم كان بودي أيها الزميل أن تدركوا، ولو لمرة واحدة، أن عالمنا المعاصر تغير كثيراً وأنكم لن تصلوا إلى أهداف غير منسجمة مع الواقع القائم وأن المزايدة على الشعارات لن تقود إلا إلى ضياع فلسطين كلها، كما ضاع أكثر من نصفها بسبب شعار (رمي إسرائيل بالبحر)، فلم تكن النتيجة إلا خسارة ما يزيد على 50% من الأراضي التي كانت وفق قرار التقسيم لعام 1974 جزءاً من الأرض الفلسطينية (لم يبق منها لفلسطين العربية سوى 22% من أصل أرض فلسطين)، حتى هذا المتبقي مليء بالمستوطنات اليهودية التي كلها غير شرعية، هذا فضلاً عن عملية التجزئة المستمرة لهذا القسم بالصورة التي يصعب معها وجود دولة فلسطينية مستقلة، وهو ما تسعى إليه إسرائيل. أعرف، كما تعرفون ويعرف القسم الأكبر من العالم، أن هناك خطة استعمارية لتصفية القضية الفلسطينية، ولكن هل من واجبنا تشجيع هذه الجهود ومساعدتها وتسهيل تحقيق أهدافها الاستعمارية والاستيطانية في فلسطين وربما في غيرها من البلدان العربية مثل سوريا ولبنان؟ وهل من الصحيح والمعقول أن تساندوا العمليات الانتحارية ضد المدنيين في إسرائيل التي تقابل بمزيد من العمليات الإجرامية لحكومة شارون العنصرية ضد المدنيين من الشعب الفلسطيني؟ وبالتالي يتحول الرأي العام العالمي من تأييده للقضية الفلسطينية إلى التعاطف مع الإسرائيليين الذين استهدفتهم العمليات الانتحارية. أدرك تماماً أن هذه العمليات الانتحارية تنتج صعود القوى العنصرية والعدوانية في المجتمع الإسرائيلي والحكومة الإسرائيلية لأنها تسمح لها برفض السلم وتجاوزه لابتلاع كل فلسطين تدريجاً. فهل علينا أن نقف ضد هذا المشروع، أم نسانده دون وعي بما يجري حولنا. وهل ينفعكم في شيء تأييد هذه العمليات الانتحارية ذات الطبيعة الإرهابية، أم هو إصرار على إعادة إنتاج الخطأ على طريقة العزة بالإثم؟

تتحدثون أيها الزميل الفاضل بلغة سياسية ممجوجة أكل الدهر عليها وشرب، وهي لغة الخطاب السياسي لخمسينيات القرن المنصرم، وهو خطاب معروف بالنسبة للتيار القومي الذي تمثلونه ويعبر عن نرجسية قاتلة، تماماً كما كانت القوى النرجسية تتحدث به في تلك الفترات، وأنا منها. وأشير بذلك إلى مسألتين، هما: اتهام الجميع بالعمالة للقوى الاستعمارية، ومنها الولايات المتحدة حالياً. فهل يصمد اتهامكم هذا مع الواقع القائم في العراق؟ من هي غالبية القوى التي تتعامل مع الولايات المتحدة في العراق حالياً؟ وما الهدف من وراء هذا التعامل؟ هل أجزنا لأنفسنا ونحن ندرس تاريخ العراق تخوين جميع العراقيين الذين اضطروا إلى التعاون في السنوات الأولى من هيمنة البريطانيين على العراق في أعقاب الحرب العالمية الأولى حتى بعد تشكيل الدولة العراقية وإنجاز وضع الدستور مع البريطانيين، أم كان لا بد من ذلك في أعقاب فشل ثورة العشرين وانتفاضة الشيخ محمود الحفيد في السليمانية لإنهاء احتلال العراق؟ وعندما بدأت بريطانيا بوضع معاهدة 1930 رفضها الوطنيون من العراقيين واعتبروا المتحالفون عضوياً مع بريطانيا. هل يحق لأتباع المؤتمر القومي أن يخونوا هذه الجمهرة الواسعة وغالبية أعضاء مجلس الحكم الانتقالي والحكومة المؤقتة وأن يتهموهم بشتى التهم ويقذفوهم بشتى النعوت دون وجه حق، لأنهم يسعون إلى إنهاء الاحتلال بأسرع وقت ممكن؟

أما المسألة الثانية فهي ابتعادكم عن الواقع والغوص في أحلام الماضي والحنين القاتل إليه الذي لن يقربنا من الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والوحدة العربية قيد أنملة واحدة بل يبعدنا عنها وعن مسيرة العالم الديمقراطية. إنكم، كما أرى، تعيشون الماضي في الحاضر فيضيع عليكم الحاضر والمستقبل، إذ عبر الحاضر نبني المستقبل. وأرى أن من الظلم بحق هذه الجمهرة التي تعمل معكم أن تنظروا لها من حالة الجمود الفكري والسياسي الذي يعاني منه تياركم الفكري والسياسي التعيس.

لقد أجبرت الحياة كل التيارات الفكرية والسياسية على إعادة النظر بأفكارها وسياساتها، بمن في ذلك الحزب الشيوعي العراقي وبعض القوى السياسية الإسلامية المعتدلة وبعض القوى القومية التقدمية، إلا تياركم الذي لا يفكر إلا بطريقة الخمسينيات ويخسر المزيد من الواقع، ويبقى متشبثاً بما لا ينفع الناس، بل بما يلحق الضرر بهم على المدى القريب والبعيد، ولكنه يبقى يعتقد أنه المنتصر في نهاية المطاف. وهذا الأمر يشمل أيضاً موقفكم الجامد والغريب من حقوق القوميات والأقليات القومية في هذه المنطقة من العالم. ومن لا يحترم القوميات الأخرى ولا يقر لها حقوقها لا يحترم قوميته ولا يمنحها الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان تماماً كما فعل صدام حسين ورهطه.

تدعون في مقالتكم إلى تشديد المقاومة ضد الوجود الأمريكي والأجنبي في العراق، ولكنكم تدركون جيداً أن هذه العمليات التي تتوجه بشكل خاص ضد العراقيات والعراقيين لا تقوم بها سوى بعض القوى البعثية من أيتام النظام السابق وجماعات من قوى الإسلام السياسي المتطرف المتزمتة والمتوحشة، سواء أكانت من أتباع (أنصار الإسلام) أم (القاعدة) أم (الجهاد الإسلامي)، ومن بعض القوميين الشوفينيين الذين دفعوا إلى العراق قبل حرب الخليج الثالثة وما زالوا هناك يمارسون التخريب والإرهاب. وقد ألقي القبض على العديد منهم في الأشهر المنصرمة. إن هذه (المقاومة) لا حظ لها من النجاح وستنحسر آجلاً أم عاجلاً، إذ من الأفضل لقوى التيار القومي ولبقية القوى السياسية العراقية الأخرى أن تتعاون مع بقية القوى الوطنية العراقية للعمل بسبل سلمية وديمقراطية أخرى من أجل إعادة الاستقرار وإنهاء الاحتلال واستعادة العراق لاستقلاله وسيادته الوطنية التي ضيعها النظام السابق واستكمل ضياعها في الاحتلال الأخير. أنا واثق جداً، ومعي النسبة الكبرى من نساء ورجال العراق، بإمكانية استعادة الاستقلال والسيادة الوطنية للعراق، إن بذلنا الجهد المشترك لمواجهة الأوضاع الجديدة بأساليب وأدوات أخرى غير تلك المستخدمة من جانب قوى الإرهاب والتخريب حالياً، ولا سيما أن الرأي العام العربي والمجتمع الدولي يساندان هذه الجهود ويوفران لها الدعم والتأييد المناسبين. ولكن لم ولن يدعما أعمال الإرهاب والتخريب والقتل المستمرة حالياً في العراق.

إن من الظلم بمكان أن تطلقوا على المجموعة التي كان يقودها صدام حسين في أجهزة أمنه ومخابراته وفدائييه وبعض قوى حرسه القومي اسم (المقاومة القومية والوطنية)، إذ أن هذه الجماعات ارتكبت من الجرائم البشعة بحق الشعب العراقي ما يندى له جبين الإنسان الشريف والمخلص لشعبه ووطنه، وهي التي مزقت وحدته الوطنية ومرغت بالتراب كرامته وأعادت للبلاد العصبية القبلية والطائفية والإقليمية الضيقة ودمرت كل ما هو خير وطيب في المجتمع العراقي. وما أعمالهم الآن إلا استمرار لما قاموا به قبل ذاك. أعرف أيضاً أن هناك بعض العناصر تقوم بمثل تلك الأعمال بدافع العداء للاحتلال، وليس البكاء على الحكم المفقود، ولكن هؤلاء قلة أولاً، وكانت بعيدة عن ظلم النظام وقسوته إزاء الشعب العراقي، أو أنها مخدوعة، رغم إخلاصها باستخدام أساليب يمكنها أن تطيل أمد الاحتلال.

المحور الثاني أيها الزميل أن أطرح عليكم السؤال التالي: ألم يكن الشعب العراقي، بكل قومياته وأديانه ومذاهبه وقواه السياسية الوطنية والمعارضة، يعيش في دولة الاستبداد المطلق والحكم الفرد الدكتاتوري وفي السجن الكبير، وفي دولة الأمن والاستخبارات والقمع الدموي، في دولة العنصرية والشوفينية المقيتة؟ ألم يكن الشعب العراقي يعيش في مستنقع حقيقي باسم القومية العربية ووحدة العراق؟ ألم يمرغ جبين الشعب العراقي، صاحب أول وأعرق أو أقدم حضارة بشرية معروفة حتى الآن، بالتراب والوحل؟ وهل تعتقدون حقاً بأن الولايات المتحدة تعيش اليوم في مستنقع عراقي، بسبب قتلاها الذين لم يبلغ عددهم بعد 500 شخصاً، بما في ذلك قتلى الحرب الأخيرة؟ أنا لا أرى ذلك، وأعتقد أن هذه الطريقة في الدعاية هي التي تحلمون بها، وهي التي كان يمارسها صدام حسين، إذ يحول الانكسار إلى الانتصار ويعيش في حلم كابوسي لا قرار له تحت ثقل نرجسيته المقيتة.

وهذا يعني أنكم لا تريدون رؤية الواقع، وهذا لا يعني بأن القادة الأمريكيين والبريطانيين لا يواجهون مصاعب في العراق نتيجة الأخطاء الفادحة التي ارتكبوها وما زالوا يرتكبونها في العراق، والتي كتبت عنها الكثير من المقالات في الأشهر الأخيرة ونشرت على نطاق واسع في العراق وفي شبكة الإنترنيت. إن العراق لن يتحول إلى فلسطين أخرى، لأن الشعب

حاضراً على عقول وصدور العراقيات والعراقيين طوال 35 عاماً. إلا أن العراق يمكن أن يتحول إلى مستنقع للمحتلين الذين أسقطوا صدام حسين، إذا ما رفضوا الرحيل من العراق وفق الاتفاق الذي تم عليه في مجلس الأمن الدولي ووفق رغبة العراقيين وإرادة أحزابه الوطنية. عندها ستكون المقاومة على مستوى الشعب كله وليس من خلال حفنة من المخربين والإرهابيين الذين أرعبوا الشعب العراقي قبل غيره من القوات الأجنبية. وإن بعض المخلصين الذين يعتقدون بصواب ما يقومون به سوف يجدون أنفسهم في وضع لا يحسد عليه ما دام الشعب بعيداً عنهم ولافظاً ورافضاً لهم.

تشير أيها الزميل الفاضل في مقالتك إلى الهدية التي قدمها ليبيا معمر القذافي إلى الولايات المتحدة عندما تنازل عن الاستمرار بإنتاج أسلحة الدمار الشامل طوعاً وقرر تدميرها والكف عن محاولة الحصول عليها أو إنتاجها. اعتقادكم، كما أرى، ليس صحيحاً، إذ أنكم تعتقدون أنه كان أمام أكثر من خيار واحد، وأنه لم يكن مجبراً على الإقدام على هذه الخطوة العاقلة. الصحيح، كما أرى، أن القذافي كان أمام أحد أمرين لا ثالث لهما بعد كل الذي حصل للنظام وصدام حسين في العراق:

الأول: زوال حكمه، فيكون مصيره مصير سابقه صدام حسين، وكلاهما دكتاتور على طريقته الخاصة، إذا ما أصر على الاحتفاظ بأسلحة الدمار الشامل.

والثاني: التخلص من أسلحة الدمار الشامل في سبيل الاحتفاظ بالحكم، ولا سيما أن الولايات المتحدة كانت وما تزال غير مهتمة جداً بحقوق الإنسان في ليبيا، بل غالباً ما استخدمتها كأداة في تنفيذ سياساتها. وبالتالي ستسقط جميع التهم الكبيرة الموجهة للقذافي ونظامه في ما يخص دعم الإرهاب الدولي أو قتل الكثير من قوى المعارضة السياسية والسجون التي أفرغها من سجناء الرأي والعقيدة بطرق العقيد القذافي وأجهزته الخاصة الشبيهة بطرق صدام حسين. كان الدكتاتور راغباً في الحكم، ولكن تطلع الشعب الليبي نحو الحرية والديمقراطية والتنمية التي لم يقدمها له نظام القذافي ما يزال قائماً، وعلى الشعب الليبي أن يتصرف في مواجهته بالطريقة التي يراها مناسبة. إن التخلص من أسلحة الدمار الشامل التي كلفت الشعب الليبي المليارات من الدولارات الأمريكية. هو مكسب للشعب الليبي كما أنه مكسب للمنطقة، إذ أنها لن تكلفه الكثير من المليارات الأخرى لو كان النظام قد احتفظ بها أو حاول تطويرها وإنتاجها. لقد دافعتم يا زميلي الفاضل عن هذا النظام طويلاً باعتباره نظاماً قومياً وقريباً من أفكار وتطلعات وممارسات الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، ولكن القذافي لا يختلف عن بقية المستبدين والطغاة والبغاة على شعوبهم في المنطقة ولا يختلف عن أي مستبد آخر على هذه الأرض.

إن عملية التغيير الديمقراطي في المنطقة العربية وفي عموم منطقة الشرق الأوسط ينبغي لها أن تبدأ من خلال نضال شعوبها، إذ أنها الطريقة الوحيدة التي تتكلل بالنجاح، وعليكم المشاركة مع بقية القوى الوطنية في إسناد هذا النضال وليس تأييد هذا النظام أو ذاك في الدول العربية التي كان حكامها يمارسون القمع والإرهاب ضد شعوبها وضد القوى السياسية فيها. إن مطالبة شعوب العالم باستعادة العراق لسيادته أمر سليم ويفترض مساندته، وهو ما يفترض أن يتحقق بأسرع وقت ممكن، ولكن شعوب العالم لم تكن مؤيدة لنظام القمع والإرهاب في العراق، كما فعلتم أنتم في المؤتمرات القومية المتتابعة منذ عام 1990. ولهذا فحركة الشعوب قبل وبعد الحرب كانت ضد الحرب والاحتلال من حيث المبدأ أصلاً، ولم تكن بأي حال إلى جانب الاستبداد والقمع والعنصرية التي مارسها النظام في العراق. وعلى حركة السلام والحركة المناهضة للحرب والحركة المناهضة لسياسات العولمة تقع مسؤولية ومهمة النضال لمنع نشوب حروب وقائية أخرى في العالم، ولكنها مسؤولة أيضاً عن النضال لإسناد حركة الشعوب المناضلة في سبيل الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان، وضد الاستبداد والقهر والاستغلال، ولمعالجة كل المشكلات المعلقة بالطرق السلمية ورفض الاستبداد والقمع أينما وحيثما وكيفما حصل، وبالتالي تقليص إمكانيات التدخل في الشؤون الداخلية من جانب الدولة العظمى في العالم وفرض سياساتها عليها.

إن الكلمة الودية الصادقة التي أوجهها إلى الزميل الدكتور خير الدين حسيب وإلى بقية السادة العاملين في (المؤتمر القومي العربي) تتلخص في دعوتهم إلى إعادة النظر في مواقفهم الفكرية والسياسية في ضوء المستجدات الدولية والتغيرات الكبرى الجارية على صعيد العالم كله.

بما في ذلك منطقتنا الشرقان الأدنى والأوسط والتفاعل معها، إذ من خلال ذلك فقط يمكن تأمين الحقوق القومية والوطنية العادلة للشعوب العربية مع الاعتراف الكامل بحق الشعوب الأخرى في تقرير مصيرها بكل حرية. إنه الطريق السليم لإعادة الأمن والاستقرار للعراق والبدء بإنهاء الاحتلال وبناء الحياة الجديدة على أسس من الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والتعددية الفكرية والسياسية والتداول الديمقراطي البرلماني والسلمي للسلطة ...الخ.